مجلة العلوم الإنسانية ـــــ المجلد 32 -عدد 2 -جوان 2021، ص.ص.367 -388

الكشف عن المعنى في الخطاب القرآني في ضوء نظرية النظم: مقاربة أسلوبية

Revealing the meaning in the Qur'anic discourse in the light of systems theory: stylistic approach

تاريخ الاستلام : 2020/07/12 ؛ تاريخ القبول : 2021/04/11

ملخص

شهد التراث النقدي العربي ظهور نظرية النظم وعلاقتها المرتحلة من اللسانيات إلى الإعجاز القرآني. فالنظم هو مناسبة الألفاظ للمعاني. ولعل أبرز الذين عالجوا هذه التوليفة الموضوعاتية والنصية بين براديغم النظم وتعدد الأسيقة في القرآن أبو عبيدة بن المثنى في كتابه "مجاز القرآن " والفراء في كتابه " معاني القرآن " ويريا أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه وحسن تأليفه، في حين ذهب الجاحظ في كتابه " نظم القرآن " على القرآن في نصه أي في شكله، أما رؤية عبد القاهر الجرجاني في كتابيه " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " فقد بلغ الغور في ربط النظم بالنحو الجمالي مؤكدا أن تلقي النص القرآني يقوم أساسا على التشكيل الصوتي والنحوي للكشف عن المعنى.

الكلمات المفتاحية: نظرية النظم، الخطاب القرآني، تعدد الأسيقة، الإيقاع الدلالي، استرجاع المعنى.

*** عبد الرحيم عزاب**

قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، الجزائر.

Abstract

The arabic critical heritage had seen the emergence of the prose theory and it transposed relation with the Ijaz Quranic's linguistic.a prose can be defined by the homogeneity between the word and the meaning, and among the innovative researches that has treated the thematic and textual polyphony through the prose's paradigm and it several contexts Abou oubaida el mouthana in his book « Métaphor of the Quran » also El faraa in his book « the meanings of the Quran » both has demonstrated that El Ijaz of Quran appears in his prosodic code while El jahed has noted in his book « prose of the Quran » through his text or form.

In addition, it is necessary that this thesis and research has to be started with vision of Abdelkader El jorjani in his own books « the evidences of El Ijaz » and « the secrets of the rhetoric » while agreeing that the prose ,the rhyme and the rhythm are related into the same grammatical filed which needs munitive analysis and a dismantling very exacte .

Keywords: Theory of prose, speech of Qur'an, variety of contexts, rhythm of semantic, getting back the meaning.

Résumé

Le patrimoine critique arabe, a vu l'émergence de la théorie de prose et sa relation transposée de la linguistique au Ijaz coranique : la prose est l'homogénéité entre le mot et le sens. et parmi les recherches innovantes, qui ont traité la polyphonie thématique et textuelle à travers le paradigme de la prose et ses différentes contextes. Abou oubaida Maamar El Mouthana dans son livre « Métaphore du coran », et El Farra dans son livre « les sens du coran » et qui ont démontré que El Ijaz du coran apparait dans son code prosodique.

Alors, que El Jahid a constaté dans son livre « la prose du coran » à travers son texte ou sa forme. on outre, je vois nécessaire que cette étude est recherche soit entamée avec la vision de Abdelquaher El Jorjani dans ces deux œuvres « les preuves de El Ijaz » et « les secrets de la rhétorique .«

Tout en considérant que la rime, la prose, et la cadence rythmique liées à un réseau grammatical doué, cela nécessite une analyse munitieuse Et une destructuralisation Très exacte.

Mots clés: Théorie de la prose, discours coranique, poly-contextes, rythme sémantique, répercussion du sens.

* Corresponding author, e-mail: abderrahimazeb_alg@yahoo.fr

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2021.

مقدمة:

لقد ظل المعجم اللغوي رافدا أساسيا يمد البلاغيين بمفردات تهيأت للانتقال من صلب النظام اللغوي التواصلي لتندرج ضمن نظام ثان تكون لها دلالة مفارقة على نحو أو آخر لدلالتها الوضعية أو العرفية الأولى؛ فهي علامات مشحونة بدلالات اصطلاحية جديدة، وبهذه الطريقة تولدت اللغة الاصطلاحية الخاصة بالبلاغة منذ ما قبل الإسلام، فجاءت غالبية المصطلحات من أصل لغوي.

واختيار إحدى مفردات اللغة لتمثل مصطلحا لمفهوم معين، أمر لم يكن يتم بطريقة عشوائية، فهناك مبدأ يقيد ذلك الاختيار، إذ لابد من وجود تشابه بين مفهوم هذه المفردة في النظام الدلالي للغة وبين المفهوم الاصطلاحي الذي تتخذ رمزا له. ومن هنا يعنى البحث بالتوقف عند التعريف اللغوي " للنظم " بوصف هذه اللفظة ذات وجود مزدوج في المعجمين اللغوي والاصطلاحي معا. فالتعريف اللغوي يكتسب هنا قيمة خاصة؛ حيث إنه يلفتنا إلى السر في اختيار لفظة (نظم) لتكون رمزا للمفهوم الاصطلاحي، كما أنه يفيد في الإجابة عن السؤال الآتي: إلى أي حد تحتفظ الدلالة الاصطلاحية في عمومها بالمعنى اللغوي ؟.

تنطلق هذه الورقات البحثية من مفهوم شامل وبسيط للنظم، من حيث إنه تكرار معين على قدر كبير من الانتظام، قد يحدث بين الحركات والسواكن، أو بين الكلمة والكلمة، أو بين الجملة والأخرى، أو الكلمة المشتركة بين جملتين متجاورتين...ثم يسعى إلى سحب هذا المفهوم على النص القرآني المعجز، الذي اختلف الباحثون في سر إعجازه، بين قائل بإعجاز لفظي وقائل بإعجاز معنوي أو دلالي وقائل بإعجاز نظمي...مع افتراض مسبق أساسه، أن نظم القرآن الكريم مقوم رئيس من مقومات الإعجاز القرآني.

لقد انصب تأويل العلماء للخطاب القرآني منذ القرون الهجرية الأولى على محتوياته وأسباب نزوله من زاويتين، هما تبيان أنه عقيدة وشريعة للناس كافة، ثم كونه معجزة الله الأزلية. وفي ظل هذه النظرية المعرفية الأصولية، تصبح الحاجة ضرورية لدراسة القرآن الكريم من منظور حداثي يعاين جدلية الخطاب الإلهي الخالد المعجز وأثر ذلك على قطبه أو عالمه اللغوي من منظور يبحث عن العلاقات المشكلة للنص. ويعاين هذه الأبنية التواصلية بين هذه العلاقات في ظل مفاهيم لسانيات النص وبلاغة الحجاج وإيقاع الصوت والدلالة. وبذا يصبح الطريق ممهدا لمقاربة الخطاب القرآني الذي يعبر في الحقيقة عن جدلية شمولية مطلقة لا على المستوى المضموني الدلالي فحسب، بل على المستوى التركيبي واللفظي، لنمو اللوحة العاملية لفعاليات التلقي واستراتجية الفلسفة القرآنية في الخطاب.

ومن المؤكد أن التوجه إلى النص القرآني، يشكل المثل الأعلى في الأداء الفني والجمالي الذي يصل إلى حد الإعجاز، وهي ولاشك ضرورة تفرض نفسها على البلاغيين بوصف استخدامه المحكم للغة معيارا يقاس عليه جودة الاستخدام المنشود: " لكن واقع البلاغة يشير إلى أن الرصد الذي يجاوز الجزئي إلى الكلي أحيانا لم يكن أحد إجراءاتها، وأيا كان الأمر فمازال هذا الكم الهائل من الملاحظات البلاغية متاحا للدارس يعيد النظر فيه مرة بعد أخرى في ضوء مقاربة أسلوبية(*Approche stylistique*)، تستقي أدواتها من النتائج المعاصرة التي توصّل إليه علم اللغة، وبخاصة ما يتصل بالصوتيات. فالدراسات اللسانية تهب ثمار بحثها لى الأسلوبية، غير أنه ليس كل شيء في النص لسانيا، فدارس الأسلوب إذا لم يُعْنَ بإسهامات التاريخ

الأدبي، ولم يهتم بالسياق الحقيقي، واكتفى بالبحث عن العلاقات في الأشكال، أشكال التعبير أو أشكال المضمون سيفوته كما يذهب بعض الدارسين الجانب الواقعي للظاهرة المدروسة "[1].

فالدراسة هاهنا، بحث تطبيقي في ضوء سياق مفاده: أن النظم القرآني يستدعي من قبل غاية نصية هي التي أذنت له أن يوجد ضمن الخصائص الأسلوبية والإيقاعية للخطاب القرآني، فهي تأتي في إطار محاولة تطمح إلى رصد بعض أنماط حقيقة توظيف النظم في مواضعه الإيقاعية من القرآن الكريم.

فالنظم بنية بلاغية *La Prose structure rhétorique* تم تأسيس مفهومها ومنظومة تقاليدها داخل التراث والثقافة العربية الأصيلة.

النظم في الجهاز المفاهيمي.

أ- دلالة النظم لغة:

جاء في لسان العرب، لابن منظور " مادة نظم ": " النظم، التأليف، وَنَظَمَهُ نَظْمًا وَنِظَامًا، وَنَظَمَهُ فانْتَظَمَ وتَنَظَّمَ، ونَظَمْتُ اللؤلؤ... أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نَظَمْتُ الشِّعْرَ... ونَظَمَ الأمر على المثل، وكل شيء قرنته بآخر، أو ضَمَمْتُ بعضه إلى بعض فقد نَظَمْتُهُ، والنَّظْمُ المنظومُ وصف بالمصدر، والنَّظْمُ مَا نَظَمْته من لؤلؤ وخرز وغيرهما... ".

وفي المعجم الوسيط: " نظم " الأشياء نَظْمًا، أَلَّفها، وضَمَّ بعضها إلى بعض، واللؤلؤ ونحوه جعله في سلك ونحوه... وانتظم الشيء تألف واتسق، يُقَالُ: نَظَمَهُ فانْتَظَمَ، ويقال: انتَظَمَ أمره فاستقام وانتظَم الأشياء جمعها، وضمَّ بعضها إلى بعض، وتناظمت الأشياء تَضَامَّتْ وتلاصقت.

ويقال: " نَظْمُ القرآن " أي ألفاظه وعباراته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة وإيقاعا ودلالة... وفي معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، لأحمد مطلوب: " والنَّظْمُ: التأليف، نَظَمَهُ يَنْظِمُهُ نَظْمًا ونِظَامًا، ونَظَمْتُ اللؤلؤ أي جمعته في السلك. لقد وضّح عبد القاهر الجرجاني أصول " علم المعاني "في كتابه " دلائل الإعجاز " وسمّاه " النظم " أو " معاني النحو " وليست معاني النحو إلاَّ علم المعاني الذي عرّفه السكاكي بقوله: " هو تتبع خوّاص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليُحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره. فالمعنى اللغوي المشترك... هو ضم الشيء إلى الشيء وتنسيقه على نسق واحد، كما تضم حبات اللؤلؤ بعضها إلى بعض في سلك ونحوه "[2].

ب- دلالة النظم اصطلاحا:

ومن هذا المنطلق يتجلى المعنى الاصطلاحي الذي ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في " دلائل الإعجاز " وربطه بالنحو، فالنظم عنده: أن تَضَعَ كلامك الوضع الذي تقتضيه علوم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نَهَجَتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها.

أما مفهوم النظم – عند القاضي عبد الجبار (ت 415 هـ) – فهو أمر عميق، فهو يشير صراحة إلى حركات النحو، وما ترسم من فروق في العبارات، وهو لا يريد الحركات الظاهرة، وإنما يريد معنى أعمق – هو نفس المعنى الذي أراده عبد القاهر الجرجاني، وهو النظام النحوي للكلام، نظما يعتبر فيه حال المنظوم بعضه إلى بعض –لا ضمّ الشيء إلى الشيء كيفما اتفق.

لذلك فهو يذهب إلى أن الكلمة لا تعد فصيحة في نفسها، إذ لابد من ملاحظة صفات مختلفة لها، لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها، ولابد من ملاحظة حركاتها في الإعراب، ولابد من ملاحظة موقعها في التقديم والتأخير (*Permutation*).

وهكذا تتبين الصلة الوثيقة بين معنى النظم اللغوي ومعناه الاصطلاحي. فإذا طبقنا ذلك المعنى على الخطاب القرآني الذي هو مناط الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني وغيره فإننا نلاحظ خصائص أسلوبه، تكمن وراء جمال اللفظ وجمال المعنى، تَطَّرِدُ في جميع آياته.

"إن فكرة النظم كانت من أبرز وجوه الإعجاز عند العلماء، ومن أظهر مفردات الإيقاع في معجم الخطاب القرآني – في تقديرنا – ولقد وقف بعضهم طويلا عندها، وتمت دراستها من جميع الجوانب اللغوية: الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية، وخاصة عند عبد القاهر الجرجاني، الذي بمقتضى ذلك صنّف كتابه" دلائل الإعجاز"، وتوالى العلماء والباحثون من بعده، أمثال: الخطابي والرماني والباقلاني والقاضي عبد الجبار والرازي والسكاكي والزركشي، يفسرون طريقته ويشرحونها ويعتزون بها، ويطبقونها على جميع آيات القرآن الكريم. وهي مطّردة منسجمة، لا تختلف في آية، ولا تطبّق في سورة دون سورة "[3].

براديغم البيان و تعدد الأسيقة في نظم القرآن

لقد أكدت الدراسات في نظرية النظم من حيث نزوعها النقدي أو اللغوي أو الإعجازي، أن النظم هو مناسبة الألفاظ للمعاني، " كما اشتغلت طوائف كثيرة من الناس بالقرآن الكريم من ناحية اهتمامه، فالمفسرون يتتبعون آياته، و الفقهاء يستخلصون منه أصول الشريعة، و اللغويون يبحثون في الألفاظ العربية و المعربة و الغريبة و غير الغريبة، و النحويون يستقصون وجوه الإعراب و خواص التراكيب لآياته ، و البلاغيون يتتبعون بيانه و بديعه وعلماء الأصوات يرصدون قراءاته و تجويده، و رجال الفكر و السياسة يلتقطون ما فيه من إشارات ونظريات ومقولات[4] ".

ووجه بعضهم عنايته للأسلوب القرآني، و المعاني و النظم، و صلته بالمعنى واللفظ، وهؤلاء استرعى انتباههم فنون التعبير في القرآن، على تفاوت بينهم ، ومن هؤلاء:

1–**أبو عبيدة معمر بن المثني** (ت 209 هـ) في كتابه "**مجاز القرآن**" يؤكد إلى أن القرآن الكريم يشابه في نظمه كلام العرب أي مجاراة اللغة العربية للقرآن، أما **الفراء** (ت 207 هـ) في كتابه "**معاني القرآن**" هو بحث في التراكيب والإعراب والمجاز البلاغي و كلتا الدراستين متعلقتين بالأسلوب، و هو عناية صاحبه بالناحية الموسيقية في نظم القرآن، و يرى أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه وحسن تأليفه.

2--في حين ذهب **الجاحظ** (ت 255 هـ) في كتابه " **نظم القرآن**" على القرآن في نصه « فلم يتبع المفسرين واللغويين والنحويين ولا المعتزلة أنفسهم اتباعا حرفيا، بل شق لنفسه طريقا وارتضى رأيا لاءم فيه بين طبيعة الأسلوب القرآني والبيان العربي بصفة عامة. ونأسف لعدم وصول كتاب " **نظم القرآن**" إلينا نحن المحدثين لضياعه، وهو عمدة دراساته في هذا الموضوع، ولا نرى بأسا في أن نستخبر كتبه الأخرى عنه، لعلها تلقي بعض الضوء عليه [5]".

أما في كتابه الموسوم " **حجج النبوة** " حيث يتحدث الجاحظ عن معجزات الأنبياء عليهم السلام و معجزة الرسول محمد صلى الله عليه و سلم و بين أن المعجزة لا تكون حتى تعجز و تخرج عن حد الطاقة: كإحياء الموتى، و المشي على الماء، و فلق البحر و أن الله تعالى حين تحدى العرب و دمغهم بالحجة، و لم يقدروا على الإتيان بمثله عجزا منهم ووهنا، و قد تحداهم في أخص خصائصهم و هو البيان.

بينما في كتابه " **البيان و التبيين**" نعثر على رأي الجاحظ في اللفظ القرآني الذي أولاه التنزيل عناية خاصة، فاختاره بدقة ليدل على المعاني بدقة، و قد يشترك لفظان في المعنى لكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة عليه، "و لنظم القرآن براعته في تنزيل اللفظ منزلته في الموضع الذي أريد له، و يمتاز بروعته أيضا في الاختيار و مراعاة الفروق بين الألفاظ، فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالا على معنى واحد، و إنما للدلالة على معان مختلفة، و بقدر الدقة في إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم[6] ".

يقول الجاحظ :"و قد يستخف الناس ألفاظا و يستعملونها، و غيرها أحق منها ألا ترى أن الله تبارك و تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع و العجز الظاهر عملا بقوله تعالى من سورة النحل الآية 112:" **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**" [7]

وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام لقوله تعالى:" **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً** " سورة الفرقان40. ونفس المعنى في سورة النمل الآية 57 :" **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**". و كذلك الريح لفظ لا يكاد يذكر إلا في موضع الانتقام عملا بقوله تعالى:" **مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** " سورة أل عمران الآية 117 و في سورة الذاريات الآيتان 41و 42:" **وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**" و الأمة و أكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر و ذكر الغيث و بين ذكر الريح و ذكر الرياح، فلفظ الرياح مصطلح قرآني يراد به الخير و عموم النفع و البركة عملا بقوله تعالى:" **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** " سورة الحجر الآية 22 وفي سورة النمل الآية 63 : " **أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** "

" لقد أورد الجاحظ نصوصا قرآنية كثيرة، و استجلى جمالها و نظمها و إعجازها، و التفت التفاتة طويلة المدى إلى نظم القرآن و إيقاعية وزنه، حيث يرد حرف الروي في الخطاب الشعري بنفس الحروف في

فواصل القرآن الكريم. و هذه و لاشك من أدل إعجاز القرآن النظمي و مجاراته للغة العربية، و مفندا من لم يقيموا وزنا بنظمه كأستاذه النظام الذي يرى أن الإعجاز فقط في معانيه [8] ".

3-**ابن قتيبة** (ت 276 هـ) لقد كان على رأس الفريقين السني ابن قتيبة الذي مثل أهل الحديث و السنة، وتسلح بالتجريب و القياس و المنطق، و درس الطبيعة و الفلسفة، و قرأ إلى جانب هذا كله بعض ما وقع بين يديه من الكتب السماوية، و كتب الديانات الأخرى، كما أتقن علوم العربية و بلاغتها، و الثقافة الفارسية و الهندية واليونانية. ألف ابن قتيبة كتبا كثيرة في النقد الأدبي: كالشعر و الشعراء، وتأويل مختلف الحديث، و الرد على الجهمية و المشبهة و المسائل و الأجوبة و في الإعجاز تأويل مشكل القرآن.

" لقد وقف ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن أمام المعتزلة، كالنظام و الجاحظ و رد عليهم في مسألة الرواية و الإجماع، فالمعتزلة و أصحاب الكلام و النظر يعتمدون على الرواية و ينكرون الإجماع، و قد أخذ عليهم تفسيرهم القرآن حسب هواهم و عقيدتهم، و إن خالف ذلك اللغة، يقول ابن قتيبة:

"و فسروا-و الضمير يعود على المعتزلة- القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم، و يحملوا التأويل على نحلهم، فقال فريق منهم في قوله تعالى: ((وسع كرسيه السماوات و الأرض))، أي: (علمه)، و جاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف، و هو قول الشاعر: ((و لا يكرسيء علم الله مخلوق)) كأنه عندهم: و لا يعلم علم الله مخلوق، و الكرسي غير مهموز في قوله تعالى: ((و يكرسئ مهموز، يستوحشون أن يجعلوا لله كرسيا [9] " والاختلاف الآخر الكبير بين السنة والمعتزلة هو في (المجاز) " فقد أجازه المعتزلة و توسعوا فيه، و رأوا فيه ضرورة تعبيرية، في حين وقف أهل السنة و الحديث موقفا حذرا، و تحرج آخرون فنفوا المجاز من أصله في القرآن، و اعتبروا كل شيء ورد فيه على الحقيقة. فيد الله هي اليد الحقيقة (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) و لكن لا يدرى كنهها، وهناك كرسي، وهناك استواء [10] ".

و القاعدة العامة عند بعض أهل السنة المتشددين أن المجاز من الضرورة التي يلجأ إليها القرآن، يقول في هذا السياق العلامة **تقي الدين بن تيمية** في كتابه الموسوم: "**مجموع الفتاوى**" : "إن الفائدة في استعمال اللفظ المجاز دون الحقيقة قد يكون لاختصاصه بالخفة على اللسان، أو لمساعدته على وزن الكلام نظما و نثرا، أو للمطابقة والمجانسة و السجع، و قصد التعظيم، و العدول عن الحقيقي للتحقير، إلى غير ذلك من المقاصد في الكلام[11] " وهي ضرورة إذا صح وجودها أو اضطر إليها البشر من الشعراء و البلغاء في كلامهم، و ما ذلك-عند المعتزلة- إلا بقصر باعهم و ضعف أداتهم، و لا يأتي الله به في كلامه و هو أعرف بموضع الكلم و مواقعه.

وهناك فريق وسط من أهل السنة لم يرفضوا المجاز جملة، ولم يقبلوا به جملة، فقالوا: إن المجاز في القرآن واقع، وهو جائز، لأنه فن من مستلزمات التعبير وأسلوب من أساليب العرب، وقد كان ابن قتيبة من هذا الفريق.

تلك هي أكبر الفروق بين المعتزلة و السنة من وجهة النظر في تفسير القرآن و تأويله و بيان سر إعجازه. وقد تحدث ابن قتيبة في عدة نواح من جوانب الإعجاز منها نظرية النظم بين ألفاظه و معانيه، نوردها في الآتي:

أولا: نظم الألفاظ، وضمها بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها و بين المعاني، فيجريان معا في سلاسة وعذوبة.

ثانيا: النغم الموسيقي (الإيقاعي): و يشمل النظم الداخلي في الآيات (النحو الجمالي و المجاز) و هو الذي ينجم من تآلف الحروف، و من الفواصل و اطرادها، و اختلافها.

ثالثا: سمو بيانه عن بيان العرب و فنون بلاغاتهم.

رابعا: العلوم و المعاني التي ضمها القرآن الكريم، و فيها زبدة (جوهر) الشرائع السماوية.

خامسا: ما فيه من دلائل الألوهية و مظاهرها المختلفة في الكون.

سادسا: ما فيه من أثر نفسي يثير الوجدان عن طريق الشعور، و يهز القلوب، "على أن ابن قتيبة استطرد إلى أبحاث بلاغية مختلفة في هذا الكتاب، وراح يشرحها نظريا أول الأمر، ثم يأتي بالشواهد القرآنية، و يظهر ما فيها من روعة و جمال بعد تحليلها، و أخيرا، تلك الكتب العامة (الثلاثة) التي ذكرناها: **(مجاز القرآن)** و **(نظم القرآن)** و**(تأويل مشكل القرآن)** كانت أبحاثا و دراسات جامعة شاملة عامة، قد تحدثت عن فكرة نظم القرآن و إعجازه في النحو و اللغة، و القراءات و الصوتيات و البلاغة و النقد الأدبي و غيرها. وتناولت إعجاز القرآن من حيث أسراره اللسانية: النحوية و الصوتية والمعجمية والدلالية والمجازية. وهذه لا شك تؤكد فكرة النظم في مباحث النقاد واللغويين وعلماء الإعجاز قبل الإمام عبد القاهر الجرجاني بقرون من الزمن [12]".

والنص القرآني قد جاء هداية للبشرية جمعاء، عقيدة وشريعة، صالحا للمجتمع الإنساني كله، وغذاء فكريا لمن ينشد ذلك. قال **الراغب الأصفهاني** في مقدمة التفسير، ص 402: ".... فالبلغاء تغرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الأثار من قصصه، وأهل اللغة والأساليب من تناصاته المتعالية المفتوحة وأساليبه البديعة، ولم يأت من أجل طائفة معينة، أو مناصرا لمذهب ما، ولكن للإنسانية جمعاء".

قواعد النظم ومجالات استخدامه في المعجم القرآني.

يشكل الحديث عن إيقاع النظم القرآني – قطبا ثنائيا (*Bipolaire*) – يتمحور الأول حول الإعجاز في نظم القرآن، والآخر ينعطف إلى الدراسات السياقية واللسانية لطبيعة النظم ذاته، حيث يتناول البُنى التركيبية في الآية القرآنية، وعن الوحدة بين الآيات في السورة الواحدة، وعن الوحدة بين سور القرآن الكريم.

" ومن هذا فلا يتذوّق معنى القرآن وحلاوته، ولا يحسُّ بلاغته وفصاحته، ولا يشعر بمتانة أسلوبه وسلامة بيانه وحسن تركيبه إلاَّ من حذق اللغة العربية، ودرس أسرار البلاغة والفصاحة وعرف أساليب الكلام، فمن كان ذا دراية وعلم بكل ذاك، أدرك أن القرآن قد احتل أرفع مناصب الإعجاز "[13].

ولعله من المفيد التأكيد أن معظم آراء الذين كتبوا في الإعجاز القرآني، نلاحظ أنها تدور حول فكرة واحدة هي: أن القرآن الكريم معجز بأسلوبه الفريد، ونظمه البديع الذي هو فوق طاقة البشر، وأن هذا الأسلوب هو " مادة الإعجاز ". يقول أحمد أحمد بدوي: " يتأنَّق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلاّ حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأنّ هذا

المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها، فكلّ لفظة وُضِعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، فالقرآن في دعوته لا يستخدم لفظًا مكان آخر، فقال: ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...**﴾ **(سورة الحجرات، الآية: 14)**. فهو لا يرى التهاون في استعمال اللفظ ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لُبْسٍ ولا تمويه، ولما كانت كلمة " **رَاعِنَا** " لها معنى في العبرية مذموم، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بها، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا...**﴾ **(سورة البقرة، الآية: 104)**. فالقرآن الكريم شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدي به المعنى "[14].

ومن خصائص أسلوب القرآن الكريم الجمالية، " أنه يجري على نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب، ويقوم في طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم. وبيان ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظما أو نثرا، وللنظم أعاريض، وأوزان محددة ومعروفة، والقرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعه، إذ لا يلتزم الموازين المعهودة في هذا ولا ذاك "[15].

"وقد يحتاج المرء إلى التريث والتدبر، ليدرك السِّرَّ في إيثار كلمة على أخرى، ولكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآني، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى. قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى** ﴾ **(سورة طه، الآية: 63- 64- 65)**. فقد يبدو للنظرة العاجلة أن الوجه أن يقال: إمَّا أن تلقي وإمّا أن نلقي، وربما توهَّمَ أنَّ سرّ العدول (*L'écart*) يرجع إلى مراعاة النظم الموسيقي فحسب، حتى تتفق الفواصل في هذا النغم، وذلك ما يبدو بادئ الرأي، أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف رغبة القرآن في تصوير نفسية هؤلاء السَّحَرَة، وألفاظ القرآن مما يجري على اللسان في سهولة ويسر، ويعذب وقعه على الأذن في اتساق وانسجام[16].

الإعجاز في نظم القرآن وقصة التأويل

في هذا السياق نورد بعض آراء علماء الإعجاز في نظم القرآن تأييدا وتقفية لما سبق:

1- مجد الدين بن يعقوب الفيروز أبادي (ت 817هـ): "... وأفضل معجزاته، وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذي نزل عليه، بأفصح اللغات، وأصحِّها وأبلغها، وأوضحها، وأثبتها، وأمتنها، بعد لم يكن كاتبا ولا شاعرا ولا قارئا، ولا عارفا بطريق الكتابة، أن يأتوا بسورة من مثله، فأعرضوا عن معارضته، عجزا عن الإتيان بمثله، فتبين بذلك أن هذه المعجزة أعجزت العالمين عن آخرهم، ثم اختلف الناس في كيفية الإعجاز فقيل: لم يكونوا عاجزين عن ذلك طبعا، إلاَّ أنَّ الله صَرَفَ همّتهم، وحبس لسانهم، وسلب قدرتهم؛ لطفا بنبيّه صلى الله عليه وسلم، وفضلا منه عليه، وذلك قوله: ﴿**... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ **(سورة النساء، الآية: 113)**.

وقال آخرون: لم يكن عجزهم عن الإتيان بمثل لفظه وإنما كان عن الإتيان بمثل معناه.

وقيل: لم يعجزوا عنه، وإنما عجزوا عن نظم مثل نظمه، فإن أنواع كلامهم كانت منحصرة في الأسجاع، والأشعار، والأراجيز، فجاء نظم التنزيل على أسلوب بديع لا يشبه شيئا من تلك الأنواع، فقصرت أيدي بلاغاتهم عن بلوغ أدنى رتبة من مراتب نظمه.

ومذهب أهل السنة أن القرآن معجز من جميع الوجوه: نظما، ومعنى، ولفظا، لا يشبهه شيء من كلام المخلوقين أصلا، تميّز عن خُطَبِ الخطباء، وشعر الشعراء، بإثني عشر معنى، لو لم يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعاني لكان معجزا، فكيف إذا اجتمعت فيه جميعا. ومجملها: إيجاز اللفظ، وتشبيهه الشيء بالشيء، واستعارة المعاني البديعة؛ وتلاؤم الحروف، والكلمات، والفواصل، والمقاطع في الآيات، وتجانس الصِّيغ، والألفاظ، وتعريف القِصص، والأحوال، وتضمين الحِكَم، والأسرار، والمبالغة في الأمر، والنهي، وحسن بيان المقاصد، والأغراض، وتمهيد المصالح، والأسباب، والإخبار عما كان، وعمّا يكون "[17].

وقد يتقاطع إيقاع النظم في القرآن الكريم من حيث بنيته الجمالية وما يتكئ عليه من أدوات في التبليغ مع بعض أدوات التعبير الشعري- بوصفهما يشكلان مقاربة أسلوبية في الاستخدام الجيد للغة- وقد يتعاضدان في أنماط التركيب المعجمي للصياغة، غير أنهما ينشعبان في إنتاج الدلالة. " فالنظم: من المصطلحات المهمة في الصياغة الشعرية بشكل خاص، ذلك لأنه من ناحية يعني التركيب أو البناء أو التأليف شأنه شأن مصطلح (النسيج). وهو من ناحية أخرى قد يطلق على الشعر نفسه في مقابل الكلام المنثور، كما أنه من ناحية ثالثة، قد يطلق على الكلام الموزون المقفى في مقابل الكلام الشعري. فألفية ابن مالك على سبيل المثال تسمى نظما لأنها موزونة ومقفاة وإن خلت من العنصر الشعري الذي هو التخييل والذي يعدّ بمثابة جوهر الشعر... ومن أبرز الذين حاولوا أن يعرفوا النظم على أساس دلالته الأولى التي يقصد بها التأليف والتركيب عبد القاهر الجرجاني... "[18].

ومن هنا يمكن القول بوجود سمات جمالية ودلائل فنية بين النص المقدس (القرآن الكريم) والنص الشعري المنظوم كون النصّين ينهلان من نبع واحد وهو روائع البيان وأنماط التركيب وخصائص الإيقاع الجميل في اللغة العربية. ولقد أورد بهذا الصدد القاضي عبد العزيز الجرجاني (ت366 هـ) وفق نظرية النظم من خلال كتابه " الوساطة بين المتنبي وخصومه " وأبو علي المرزوقي في مقدمة " شرح ديوان الحماسة" لأبي تمام منهجية العرب القدامى في الصياغة الشعرية ضمن سبعة أبواب:

1- شرف المعنى وصحته.

2- جزالة اللفظ واستقامته.

3- الإصابة في الوصف.

4- المقاربة في التشبيه.

5- التحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن.

6- مناسبة المستعار منه للمستعار له.

7- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية.

هذه الأبواب مجتمعة تُلخِّص – فيما نعتقد جازمين – طريقة العرب القدامى في النظم و الكتابة الشعرية...

وتأسيسا على ما سبق فإن مظاهر الإعجاز في النظم وبنيته في النص القرآني، إن هي إلا مفردات في معجم الإيقاع اللفظي والصياغة الأدبية الراقية لأعلى مراتب البيان وأسمى آليات الخطاب اللغوي، الذي ظل ردحا من الزمن طويلا ولا زال يتحدى. " لقد جاء القرآن الكريم في الذروة من الفصاحة والبلاغة، فلما سمعه العرب، أدركوا معانيه، وعرفوا مراميه، وحاز إعجابهم، ما دفعهم إلى هذا إلاَّ الإعجاب بلغة الخطاب القرآني ونظمه، الذي تحداهم –في أخص خصائصهم – أن يأتوا بمثله فعجزوا... "[19].

2- **عفت الشرقاوي:** لقد أكد هذا العالم الخبير بأسرار الإعجاز البياني للقرآن الكريم، أنه في كل مناسبة كان يقينه يزداد " بأن مباحث الإعجاز للقرآن الكريم هي في حقيقتها فوق قواعد النحويين وتطبيقات البلاغيين "[20]. وإذا حاولنا أن نلامس موضوع الإيقاع البلاغي والجملة القرآنية، وفق نظرية هذا الخبير العالم بآفاق الإعجاز القرآني في ضوء مقاربة أسلوبية، فإننا نؤكد أن نظرية النظم التي قال بها عبد القاهر الجرجاني، والتي ظلت تمثل قيدا على انطلاق التفكير البلاغي والتفسير الأدبي إلى آفاق جديدة من الفهم الجمالي للنصوص العربية العالية "... إن خصائص البيان القرآني تحتاج إلى تفصيل خاص في مجالات النحو والبلاغة والتفسير وعلوم اللغة وغيرها، حتى تتبين لنا السّمات الأسلوبية الدقيقة للنص القرآني... "[21].

" على أن عبد القاهر الجرجاني، بعد ذلك، قد استخدم كلمة النظم بمفهوم أكثر دقة وثراء، إذ أصبحت تعني عنده علم المعاني – أي معاني النحو – فهذه المعاني هي التي يترابط بها الكلام، ويتعلق بعضه ببعض تعلقا خاصا يحدث الأثر البلاغي المطلوب، وفي ذلك يدخل أيضا ترتيب الكلمات وفقا لترتيب المعاني الأصلية والمعاني الإضافية في النفس: يعني مثلا أن في قوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾، معنى التعبير عن تعبد المسلم لله تعالى، وهو المعنى الأصلي، ومعنى تخصصه بالعبادة وهو المعنى الإضافي المستفاد من تقديم المفعول. وقد أكد عبد القاهر الجرجاني أثر التركيب النحوي في المعنى، وما يترتب على ذلك من بلاغة التعبير وتعلقه بآفاق من النحو الجمالي "[22].

وهناك ملاحظات متناثرة بعد عهد سيبويه (ت 180هـ) تصور رغبة اللغويين في النفاذ إلى معاني الأساليب واستعمالاتها، ولكن عبد القاهر الجرجاني بصفة خاصة، هو الذي أقام أساس النظرية، حين دعا إلى إعادة قراءة النصوص على ضوء فكرة تنظيم الكلمات، وأسرار البلاغة عند عبد القاهر ليست في جوهرها إلا أسرار النظم أي تعليق الكلمات بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض وفقا لإمكانات صور

الإسناد الكثيرة، فلكل صورة دلالتها الخاصة التي يختارها البليغ بحسب الأحوال، ففضيلة البيان لا تعود إلى اللفظ من حيث اللفظ، وإنما تعود إلى النظم وترتيب الكلام وفق ترتيب معانيه في النفس.

3- عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) / النظم – الخطاب – التفكيك

وينبني على ما تقدم أن عبد القاهر الجرجاني، قد وضع بكتابيه "أسرار البلاغة " و"دلائل الإعجاز " نظرية النظم العربي التي لا تزال إلى حد كبير تسيطر على التفكير البلاغي عند كثير من المعاصرين. فقد فسّر نظرية النظم وخصوصا في كتابه " دلائل الإعجاز " تفسيرا يردها فيه إلى فكرة المعاني الثانية أو المعاني الإضافية التي تلتمس في ترتيب الكلام وهي فكرة كانت جديدة في ذلك الوقت. وهكذا فقد اكتسبت النظرية عند عبد القاهر الجرجاني ما يشبه الجهاد البلاغي في شقيها القرآني والأدبي. ومع ذلك فإن هذه النظرية – رغم عمقها اللغوي، وتعبيرها عن اتجاه مدرسة من المدارس الجمالية عند العرب، ورغم انشغال الباحثين بها بعد عبد القاهر الجرجاني انشغالا صرفهم عن أي تجديد يذكر في هذا المجال –.

وتأسيسا على ما سبق أن أبرز وجوه الجمال ضمن نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، يمكن إجمالها في الآتي:

1-المعول عند عبد القاهر الجرجاني كله على نظم العبارة وما يحدثه من أثر بعيد داخل مسألة الصورة في التعبير وترابطها في السياق، سواء كان ذلك عن طريق الاستعارة أو غيرها...

2-إغفاله إلى حكمة المعنى أو غرابته أو ترابط الأفكار ترابطا عضويا ونفسيا أو قيمة هذا المعنى...

3-اعتبار منهج النحو الجمالي – أو نظرية النظم – كما يسميها عبد القاهر الجرجاني، وسيلة لفهم المعاني المفردة من أجل الوصول إلى المعاني الكلية التي هي مرامي النص. وهذا يندرج ضمن قضايا الإعجاز.

4-قيام النظرية على بلاغة النظم وحده، يُعدّ إهمالا لجوانب إيقاعية أخرى قد يكون لها أثرها في بلاغة النص.

5-الاعتماد على التحليل الشكلي لإمكانات التعبير وصوره المختلفة.

6-تقوم نظرية النظم على فكرة صور التعبير وإمكاناته، مما جعلها تتجه في كل أنماطها إلى فكرة تحقيق المعنى في ذهن المتلقي بأمثل عبارة.

7-يمكن اعتبار نظرية النظم فلسفة لغوية لأساليب الإقناع الأدبي باعتمادها على التعبير البلاغي الأمثل، المقنع والمنطقي، وهذا يندرج ضمن فعاليات التلقي واستراتيجية الحجاج في الدرس الأسلوبي...

8-تسير فكرة النظم في إطار من فلسفة التبليغ و إقامة الدعوى وتقديم الدليل...

9-تفعيل آلية الجانب الصوتي في اللغة، وبيان العلاقة الإيجابية بين أصوات اللغة ومعانيها وبين العاطفة والانفعال، وأثر ذلك كله في العمل الأدبي.

10-تتكئ نظرية النظم على فكرة (اكتفاء اللغة بذاتها) أي عدم ربط النص الأدبي أو العمل الفني بشخصية قائله، أي تُوسم بكونها أول منهج علمي دعا إلى غياب الباث عند رولان بارث *Roland*

Barthes وجاك دريدا *Jack Derida* وهذا ما يدل في الدراسات اللسانية الحديثة (بموت المؤلف) أو بعبارة أدق: النصانية أو المحايثة *(L'immanence)*...

11-وأخيرا فإن نظرية النظم، بوصفها طريقة في التركيب والصياغة والإيقاع، تقوم على محاولة الكشف عن عناصر الجمال الشكلي في العمل الأدبي – بناؤه اللغوي – دون اعتبار لمضمونه الدلالي. وهي بذلك تعبّر عن المذهب السائد في النقد العربي الذي يقول:" إن المعاني ملقاة في الطريق، وإنما يتفاضل الأدباء بصورة التركيب اللغوي الذي يتناولون بها هذا المعنى، أو كما يقول قدامة بن جعفر (ت 337 هـ): " وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب رداءته في ذاته"[23]. " وهي عبارة تصور في قوة ووضوح مذهب الشكليين الذين يجعلون الجمال كل الجمال في الصورة، ولا يعنيهم المحتوى في شيء "[24].

إيقاع النظم في الجملة القرآنية وبلاغته.

مما لا يدع مجالا للشك أن تلقي النص القرآني يقوم أساسا على التشكيل الصوتي، وعلى آليات الخطاب البلاغي واللغوي في الجملة برمتها، التي تخاطب في المقام الأول الروح، وتخلق لدى السامع الإحساس بالمتعة أولا والفائدة ثانيا. مما يتكوّن لديه – أي السامع – عملية الرجع أو الارتداد أو الصدى أو انعكاس الصوت (*Répercussion*) بين جمال اللفظ المفرد أو نظام الجملة المركبة – هذا البناء اللغوي والدلالي – الذي يولد بدوره الرد السريع في وجدانه (*Réplique*) بأبدع ما يمكن أن يحركه كلام منظوم.

" وألفاظ القرآن في جوهرها ومضمونها، ليست ألفاظا فقط، بل هي حياة تضطر فيها زيادة على صوت النفس الطبيعي في تركيب اللغة العربية، وصوت الفكر أو العقل، فيما فوق ذلك إلى صوت الحس، في الألفاظ والمعاني الممثلة "[25].

ويمكن تصور مظاهر الإعجاز في نظم القرآن، وبيان أنماط الإيقاع في خطابه في مجالين:

أولا: مجال اللفظ المفرد.

ثانيا: مجال الجملة المركبة.

أولا- في مجال اللفظ المفرد / التشكيل الصوتي وسحر البيان

" يتأنق القرآن الكريم في اختيار ألفاظه، فكل كلمة توضع في مكانها، كاللبنة في البناء، ولا يصلح غيرها موضعها، ولو تقارب المعنى وتساوى معها في الطول والعرض، لأن لكل كلمة دلالة خاصة، وإيحاء خاصا، وانسجاما في التركيب، ولا يستطيع أن يلمَّ بسائر الدلالات، ويوازن بين دلالة وأخرى، ويضع الكلمة المعبرة عن الموقف أصدق تعبير، والمصورة لخلجات النفوس، وخطرات الضمائر إلا العليم الخبير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور "[26].

ومن أرقى نماذج اللفظ المفرد (تركيبا ودلالة وإيقاعا) في الخطاب القرآني على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

1- قوله تعالى: ﴿ **وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ** ﴾ **(سورة الرحمن، الآية: 54)**. فلو قال مكانه: وثمر الجنتين قريب، لم يقم مقامه من جهة الجناس (*L'Allitération*) بين الجنى والجنتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها ومن جهة المحاذاة الصوتية أو موسيقى اللغة أو ما يطلق عليه مؤاخاة الفواصل. فقد حققت وقفة الألف والنون النغم الصوتي ذا الوظيفة النظمية والانفعالية Fonction prosodique et émotionnelle.

2- وقوله جل وعلا: ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ** ﴾ **(سورة العنكبوت، الآية: 48)**. أحسن من التعبير بـ " تقرأ " لثقله بالهمزة.

3- ومنها: ﴿ **لَا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ **(سورة البقرة، الآية: 2)**. أحسن من " لا شك فيه " لثقل الإدغام، ومن هنا كثر استخدام كلمة (الرّيب) في المعجم القرآني...

- ومنها: ﴿ **لاَ تَهِنُوا** ﴾ **(سورة آل عمران، الآية:139)**. تبدو ألطف وأجمل من " لا تضعفوا " لخفته، و﴿ **وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ **(سورة مريم، الآية: 4)**. أحسن من "ضعف ". لأن الفتحة أخف من الضمة.

- ومنها: " **آمَنَ** " في كثير من النصوص أخفّ من " **صَدَّقَ** " ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق...

- ومنها: ﴿ **آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ **(سورة يوسف، الآية: 91)**. أخف من "فَضَّلَكَ "، و" **آتَى** " أخف من " أعْطَى " و" **أَنْذَرَ** " أخف من " خَوَّفَ "، و﴿ **خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾ **(سورة الصف، الآية: 11)**. أخف وأسهل في النطق من "أفضل لكم".

4- والمصدر في مثل قوله تبارك اسمه: ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ** ﴾ **(سورة لقمان، الآية:11)**. و﴿ **يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ **(سورة البقرة، الآية:2)**. أخف من (مخلوق) و(الغائب). و(**نَكَحَ**) أخف من تزوج، لأن (فَعَلَ) في الميزان الصرفي أخف من (تَفَعّل)، وهاهنا كثر ذكر لفظ النكاح. ولأجل التخفيف والاختصار والسهولة في النطق استعملت الألفاظ مفردة أكثر دلالة من غيرها مثل: الرحمة والغضب والرضا والحب في أوصاف الله تعالى العليا، مع أنه لا يوصف بها حقيقة، لأنه لو عبّر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام.

والخلاصة، " أن الألفاظ لبنات التركيب، وليس لكلمة فضل على أخرى إذا كانت وحدها. فإذا نظمت في جملة أو عبارة وضحت قيمتها، وكانت بذلك النظم دليلا على نفسها، من حيث روعتها أو سقوطها. وألفاظ القرآن إذا انصرفت عن النظم، وكانت بعيدة عن مجال التصوير، ألفاظ عادية من جنس الألفاظ العربية التي يحمل كل منها دلالة خاصة "[27].

ومن هنا تترسخ نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني ضمن مبحثنا هذا، وتتبنى أن القيمة الفنية والجمالية للنص الأدبي عموما والنص القرآني تحديدا، إنما تكمن في صياغته ونظمه: " وأن هذا النظم هو مناط إبداع الأديب ومظهر عبقريته، وواضح أن عبد القاهر يتكئ على خبرته الجدلية كمتكلم، ولكنه لا يكتفي بهذا

الجدل العقلي، وإنما يقرن إليه الذوق الفني، البالغ الرهافة، حيث يعمد إلى تحليل آية كريمة تحليلا في أسمى مراتب الجمال، ويكشف عن مدى رهافة حاسته الأدبية، ونفاذها من ناحية، وعن مدى سعة ثقافته اللغوية وعمقها من ناحية أخرى. وهو ينتهي من هذا التحليل إلى سر الجمال الفني المعجز في الآية، ليس مرده إلى الألفاظ من حيث هي كلمات مفردة، وإنما الطريقة التي صيغت بها هذه الألفاظ، والأسلوب الذي نظمت به هذه الآية. والآية التي اختارها هي قوله تعالى: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ **(سورة هود، الآية: 44)**.

ويؤول عبد القاهر أن إعجاز الآية التركيبي والبلاغي والإيقاعي، إنما مرده إلى ذلك الاتساق القريب بين الألفاظ (*Assonance vocabulaire*) .وذلك التلاؤم البارع بينها، أما الألفاظ ذاتها فليس لها من المزية والروعة ما هو لها، وهي في الآية الكريمة: " إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه، وهي في مكانها من الآية؛ قيل: " **ابْلَعِي** " واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها، وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ (يا) دون (أي) نحو (يا أيتها الأرض) ثم إضافة (الماء) إلى (الكاف) دون أن يقال (ابلعي الماء)، ثم اتبع نداء الأرض، وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء. وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل **(وَغِيضَ الْمَاءُ)** فجاء الفعل على صيغة **(فُعِلَ)** الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: ﴿ **وَقُضِيَ الْأَمْرُ** ﴾ ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو **(وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)** ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ (قيل) في الفاتحة... "[28].

وبمثل هذا التحليل يمضي عبد القاهر الجرجاني يبلور ملامح نظريته في النظم، ويرسي أسسها، وبمثل هذا المزج الرائع بين الذوق والقاعدة، تتكامل قواعد منهجه البلاغي، وينتهي عبد القاهر إلى تقرير أن الألفاظ إنما تكسب قيمتها الفنية من الأسلوب الذي به تشكل في بناء لغوي متكامل، أو في " نظم " على حد تعبيره، وهو يحدد مفهوم النظم، بأنه مراعاة قوانين النحو ومناهجه. فـ " ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها "[29].

ومن أبرز مظاهر الإعجاز في النظم، فيما يتصل باللفظ المفرد الدال على روعة التركيب وجمال الصياغة وفنيات الإيقاع ما يلي:

5– قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ **(سورة البقرة، الآية: 49)**. نجد أنه اختار **(يَسُومُونَكُمْ)** بل (يذيقونكم) مثلا، لأن معنى الأول يولونكم إياه، ويريدونكم عليه، وهذا المعنى لا يوجد في (يذيقونكم). كما اختار لفظة " **يُذَبِّحُونَ** " بدلا من " يقتلون" مثلا، أو يقتّلون بالتضعيف لعين الكلمة، لأن الفعل الأول يدل على كثرة من ذبح فرعون من بني إسرائيل، وعلى أنه كان يعاملهم معاملة البهائم مع إهدار قيمهم، وخنق

كبريائهم حيث حادوا عن طريقه الضال إلى طريق موسى المستقيم، وهذا المعنى لا يوجد في " يقتلون " من غير تضعيف العين، أو بتضعيفها.

6- وفي قوله عز شأنه:﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ **(سورة الإنسان، الآية: 10)**. إذ يحس المتلقي في قرارة نفسه بأن يوم القيامة أشد عنفا، كالح الوجه... ليس فيه أمل أو رجاء للكافرين، وبتوالي كلمتي " عبوس وقمطرير " يبدو هذا الثقل الذي يكون في اليوم الكريه، والذي هو ما يتمنى المؤمنون أن يتجنبوه. فإذا نظرنا إلى الصورة المقابلة في قوله جل شأنه: ﴿**فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا...إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا**﴾ **(سورة الإنسان، الآيات: من 10- 22)**. نجدها على النقيض من الصورة الأولى، فالكلح والعبوس والاكفهرار، يقابله النضرة والسرور والجنة والحرير، والأرائك اللينة المريحة، والجو المعتدل الذي لا حرَّ فيه ولا قرَّ، والظلال الدانية، والقطوف المذللة، والأواني الفضية البيضاء، والأكواب القوارير، والكأس التي مزاجها زنجبيل، والعين التي تُسمّى سلسبيلا، والولدان المخلدون كأنهم لؤلؤ منثور، والنعيم والملك الكبير، والثياب السندسية الخضراء، والأساور الفضية المتألقة، والشراب الطهور... فلا نحسّ خللا ما في ثنايا هذه الصور المسهبة المطنبة، التي تتناسب وموقف المؤمنين.. ولا نجد لفظا قلقا في موضعه نشازا في بنيته وتركيبه. إن كل لفظة قد أخذت مركزها الطبيعي من الصورة حتى تكاملت وعبّرت وأجملت وأعجزت.

7- وفي معرض حديثنا عن مظاهر الإعجاز في النظم، خاصة ما اتصل ببنية اللفظ المفرد في الخطاب القرآني، نجد كثرة استخدام كلمة " يعلمون " في الأمور التي ترجع إلى العقل.

كقوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا** ﴾ **(سورة البقرة، الآية: 26)**. لأن الذين آمنوا فكروا بعقولهم فوصلوا إلى هذه النتيجة المرضية، والذين كفروا لم يفكروا بعقولهم، بل فكروا بعواطفهم، وحكموا شعورهم الذي طبعهم على التقليد الزائف فضلوا السبيل.

وقوله الحق:﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ** ﴾ **(سورة الأنعام، الآية: 114)**.

وقوله جل ثناؤه: ﴿ **أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ **(سورة يونس، الآية: 55)**. إلى غير ذلك.

8- ويكثر في القرآن الكريم استخدام كلمة " **يَشْعُرُونَ** " في الأمور الحسية، التي يكون للحواس صلة بها. كقوله تعالى: ﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾ **(سورة الزمر، الآية: 55)**. ولا شك أن العذاب مما يحس به الإنسان ويشعر.

وقوله جل جلاله: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ **(سورة البقرة، الآيتان: 11- 12)**. كما أن الإفساد في الأرض يشعر به المفسدون.

والخلاصة، أن الكلمات المفردة في التركيب المعجمي والصوتي تزيد في إنتاج الدلالة وتضفي البيان لإحياء الصورة، وبعث الحركة بين أجزائها مما يزيد في آليات التأثير الإيجابي عند التلقي.

9- وقد تكون كلمة أو كلمتان أمرا لازما لإحياء الصورة وبعث الحركة والإيقاع بين أجزائها. وعندما نتأمل هذا النص القرآني القاطع: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾ **(سورة إبراهيم، الآية: 18)**. فأعمال الذين كفروا تافهة المعنى، ضائعة القيمة، لا تصلح أن تكون شيئا، كأنها ذرات الرماد، التي تطير بها الريح في يوم عاصف.

فالرماد هنا ذائب مع الهواء، ولذا ناسبه الريح الشديدة العاصفة (تركيبا وصياغة وإيقاعا ودلالة)، والتراب في صورة أخرى من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا** ﴾ **(سورة البقرة، الآية: 264)**. لاصق بالحجر المستقر على الأرض، ولذا ناسب الوابل (تركيبا وصياغة وإيقاعا ودلالة) حيث تركه صلدا.

ثانيا- في مجال الجملة المركبة / ثنائية الدال والمدلول وكمياء الدلالة

استعمل القرآن الكريم لغة العرب لكن بأسلوب جميل متفرد في كل صوره ومظاهره، فجاء بكلام معجز لا قبل لبشر بأن يجيء بمثله لفظا ومعنى... وصور الإعجاز في لغة القرآن كثيرة متنوعة، منها اختياره للألفاظ بدقة عجيبة، حتى لا تجد لفظا يمكن استبداله بآخر دون تغيير المعنى، ومنها دقة التركيب والنظم، ومنها الإيقاع الجميل في تراكيبه وجرس ألفاظه، ومنها كذلك توزيع الحروف على مساحات الكلام بين مجهور ومهموس ومفخم ومرقق وشفوي وحلقي وأسناني... بحيث لا تجد كلمة صعبة النطق ولا قلقة في موضعها.

ولاشك أن الدراسات السابقة لعلمائنا من السلف أسهمت بجهود طيبة في جوانب الإعجاز البياني للقرآن ، بدءا من بحوث علماء اللغة القدامى في القرنين الثالث والرابع أمثال أبي عبيدة في كتاب " المجاز "، والفراء في كتاب " معاني القرآن " وابن قتيبة في كتاب " بيان المشكل "، والرماني في كتاب " النكت في إعجاز القرآن "، حيث فتح هؤلاء الباب أمام الباحثين في أسلوب القرآن ولغته.

فقد كان أبو عبيدة ممن بدأ القول في المجاز القرآني، أو تغير دلالات بعض الألفاظ والتراكيب والصيغ اللفظية عن مدلولها الشائع إلى مدلول آخر يخدم المعنى في سياق الآية القرآنية كما نبه الفراء إلى أهمية الإيقاع في آيات القرآن، وفواصل الآيات أو رؤوس الآيات كما يسميها بعض العلماء، ويشير إلى العلاقة الوطيدة بين وحدة الإيقاع في الآية والسورة أو الآيات المتجاورة، حتى يتصل فيها الإيقاع في نسق صوتي لا نشاز فيه، ويراعي في ذلك بناء الكلمات من الحروف المتآلفة الأصوات والإيقاع. وتكون الفاصلة هي الوحدة الموسيقية، أو القفل الذي يتركز عنده النغم ولهذا فالقرآن يوليها أهمية خاصة. وقد تابع العلماء الاهتمام بما نبههم إليه الفراء، فأخذوا في موضوع التآلف في الآيات وعجائب النظم، وروعة الفاصلة أو رأس الآية ومدى إحكامها وارتباط المعنى بها ارتباطا وثيقا، فهي ختامه وركيزته، ومن هنا اختلفت عن السجعة أو الكلمة المسجوعة في فقرات السجع الذي عرف عند عرب الجاهلية، أو الذي اعتاده بعض الخطباء والكتاب فيما أنشأوه من القول في الإسلام.

وأولى هذا الخطير اهتمامه كل من الجاحظ في كتبه ورسائله، وفي كتاب " نظم القرآن " خاصة، وابن قتيبة والرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري، وابن الأثير وغيرهم من تبعوهم، وجاءوا على آثارهم. وقد اهتدى الخطابي وعبد القاهر الجرجاني إلى نظرية النظم، والعلاقة بينه وبين المعنى. فقالوا: "إن

الكلام هو معنى اللفظ، ونظم يربط بينهما، والمقصود بالمعنى الذي يرتبط فيه باللفظ عن طريق النظم معنى العبارة أو الجملة وليس المعنى الإفرادي للكلمة. وهكذا تمت الدراسة للأسلوب بعناصره على صورة متطورة نجدها في بحوث معاصرة لعلماء غربيين، وقد اهتدى علماء المسلمين إليها قبلهم بمئات السنين "[30].ونضيف إلى هذه الجهود الدائبة للتعرف على الإعجاز القرآني وخاصة البياني واللغوي والإيقاعي منه جهودا أخرى أَبَانَ عنها ورصدها هذا المبحث.

– نماذج من الجملة المركبة في ضوء المعجم القرآني:

يجدر البيان أن تركيب القرآن يعتمد على الجملة، اسمية أو فعلية، وما ينتج عنهما من تداعيات كالتقديم والتأخير والحذف... كل ذلك لعلل بلاغية وقيم فنية وجمالية اقتضاها السياق وتوخاها نسق اللغة وأومأ إليها نظام الرموز والدلالات...

"إن أصدق وصف للنظم القرآني في الآيات، مع ما يستتبعه من ربط الآيات بعضها ببعض هو أن الآية القرآنية بناء متكامل ولا يمكن أن يؤخر ما قدم، أو يقدم ما أخر، أو يذكر ما حذف، أو يحذف ما ذكر، أو يوجز فيما أطيل فيه، أو يطنب فيما أوجز فيه، لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها موقف، وكأنما لم يخلق الله تعالى لأداء تلك الدلالات، غير هذه القوالب، على اتساع اللغة بألفاظها وأشكالها. قال تعالى: ﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ **(سورة هود، الآية: 1)**.

والخلاصة أن الآية القرآنية تجيء تبعا للمعنى النفسي، فترسمه وتبرز له طولا وعرضا أو تجسمه، وتجعله شاخصا أمام البصر، حتى يزيد تمكنا في النفس، وحتى تثبت لأصحاب الفطرة اللسانية عجز مقدورهم، فيتحقق صدق المعجزة "[31].

إن الالتفات إلى الصور الجمالية، وتصويرها وتشخيصها في الخطاب القرآني (تركيبا وإيقاعا) يقودنا حتما إلى أبرز من برع في تجليته، هو الزمخشري (ت538هـ): " لقد كان الزمخشري ثاقب النظر، دقيق الفهم، قادرا على تفهم الصورة القرآنية فهما جيدا، وإبرازها بألوانها وشخوصها وأهدافها، فجاء تفسيره مزيجا من التفسير والتصوير والتشخيص والتجسيم، وكانت هذه الأمور هي أدواته وعدته في العملية التفسيرية. فهو حينما يعرض لقوله تعالى:﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ **(سورة البقرة، الآية: 127)**. يشير إلى دور كل من إبراهيم وابنه كما رتبتهما الآية، فدور إبراهيم أصلي، ودور إسماعيل ثانوي " قيل كان إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة. "وحينما يفسر قوله تعالى:﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ** ﴾ **(سورة الأعراف، الآية: 154)**. يقول: كأن الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: " قل لقومك كذا، وألق بالألواح وجر برأس أخيك إليك ". فهذا التشخيص للمعنى هو الذي بعث فيه الحياة، وكساه جماله وروعته "[32].

"ولاشك أن هذه لمحات فنية تدل على التناسق بين المعاني والألفاظ، وعلى أن هناك معرفة بالغيب الماثل في خطرة النفس، أو نجوى الضمير، ومن هنا تجيء الألفاظ على مقياس معانيها. ولا يمكننا بالطبع

أن نغفل دور عبد القاهر الجرجاني، الذي أوشك أن يبلغ الغور، ويفتح فتحا جديدا في معرفة بلاغة القرآن "[33].

وتأسيسا على النتائج المستخلصة في مقاربة النص القرآني ضمن مبحث نسق الجملة (تركيبا وإيقاعا) نسوق أمثلة أكثر دينامية في تقنيات السرد القرآني لآيات التشخيص والتجسيم:

أولا– توضيح أن المعاني الذهنية تخرج في صور محسوسة:

1– قول الحق سبحانه: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** ﴾ **(سورة الفرقان، الآية: 23)**. نلاحظ بعمق أن العمل عقلي، أبرزه إبرازا ماديا في صورة الهباء المنثور، فكان أوضح وآكد للضياع الحاسم.

2– قوله عز شأنه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا** ﴾ **(سورة البقرة، الآية: 264)**.

– ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآَتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ **(سورة البقرة، الآية: 265)**.

بمقاربة تأويلية نجد صورتين متقابلتين: "حيث تمثل الأولى: هيئة الحجر الصلب المستوي، غطته طبقة خفيفة من التراب، فظنت فيه الخصوبة، فإذا وابل من المطر يصيبه، وبدلا من أن يهيئه للخصب والنماء، إذا به يتركه صلدا، وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي تستره، وتخيل فيه الخير والخصوبة.

والأخرى: تمثل الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضاة الله بالجنة فوق ربوة، والوابل مشترك بين الحالتين، ولكنه في الحالة الأولى يمحو ويمحق، وفي الحالة الثانية يربى ويخصب. في الحالة الأولى يصيب الصفوان فيكشف عن وجه كالح كالأذى، وفي الحالة الثانية يصيب الجنة، فيمتزج بالتربة، ويخرج أكلا، ولو أن هذا الوابل لم يصبها، فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها **(فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ)**.

فالصورة نابضة بالحركات وإيقاع الحياة ومماثلة الجزئيات، حيث يكون الصفوان تغشيه طبقة خفيفة من التراب مثلا للنفس المؤذية، تغشيها الصدقة تبذل رياء، والرياء ستار رقيق يخفي القلب الغليظ، وحيث توضع الجنة فوق ربوة، في مقابل الحفنة من التراب فوق الصفوان "[34].

ثانيا– دقة الربط بين الآيات:

" إن القارئ المتأمل في كتاب الله عز وجل، يقف على خصيصة هامة وبارزة، وهي فنية الربط بين الآيات ودقتها، هذه الخصيصة هي التي أذهلت العرب الفصحاء، فوقفوا دونها في حيرة من أمرهم. إن الربط

بين الآيات، قد يظهر بحيث تكون الآية الثانية متممة للأولى، أو مؤكدة لها أو مفسرة إياها. وهذا واضح جلي في معظم الآيات "[35].

1- الآية المعطوفة: كقول الله جل وعلا: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ **(سورة البقرة، الآية: 189)**.

فقد يقال: أي رابط بين أحكام الأهلة، وبين حكم إتيان البيوت ؟

قال الزركشي (ت794هـ) في برهانه، الجواب من وجوه:

أولها: " كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلة ونقصانها: معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة، ومصلحة لعباده. فدعوا السؤال عنه، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء، وأنتم تحسبونها برا.

الثاني: أنه من باب الاستطراد، لما ذكر أنها مواقيت للحج، وكان هذا من أفعالهم في الحج.

الثالث: أنه من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم كمثل من يترك بابا، ويدخل من ظهر البيت، فقيل لهم: ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة، ولكن البر من اتقى ذلك. ثم قال سبحانه: ﴿ **وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا** ﴾. أي باشروا الأمور من وجوهها، التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا. المراد أن يصمم القلب على أن جميع أفعال الله حكمة منه، وأنه ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ **(سورة الأنبياء، الآية: 23)**. فإن في السؤال اتهاما... وهذا لون من الربط الفني الدقيق. الذي يحتاج إلى بصيرة وبصر، وقوة تأمل، وعمق إدراك "[36].

وحيث يضيق المقام للدخول في تفصيلات هذا المجال، ولكن نشير إلى الجملة غير المعطوفة والتي تحتاج إلى قرينة للاتصال: كالتنظير، والتضاد، والاستطراد، " وهكذا يتبين لنا أن الربط في الآية الواحدة، بين الجمل المختلفة، أو في الآيات، متعاطفة وغير متعاطفة، يسير على نظام فني، وينتهج طريقة مقصودة تلتئم مع المعاني والأغراض والمواقف التي تتعرض لها كل سورة من سور القرآن "[37].

وتأسيسا على النتائج المستخلصة في مقاربة بنية الإيقاع في الخطاب القرآني ضمن مجال النظم ودلالته، فإن الكلمات المفردة في معجم التركيب القرآني تحيل إلى مدلولات متعددة تزيد في توليد الطاقة الدلالية وتضفي على اللفظ المفرد سحره الصوتي، ومدى توازيه مع غيره وتكوين السلم الموسيقي المنسجم مع البناء الكلي للألفاظ داخل سياق الجملة ودلالاتها.

وللإشارة فإن هذا النمط من الكلمات المفردة قائم على مهمة تقسيم الجمل داخل نسيج أو نظم أو بناء الآية برمتها. وما يلاحظ في المقام الأول هذا التوازن والتوازي (*Parallélisme ou Symétrie*) بينها وطغيان التناغم الموسيقي الناتج عن التوافق الصوتي المنبعث من هذا التقسيم.

خاتمة:

من هنا نستنتج في هذه المقالة العلمية، أن هناك مقياسا دقيقا لكل كلمة تتضاءل دون قوى البشر، واختص به الله تعالى وانفرد... وهذا كله لا يتصل بالكلمة في حال إفرادها، وإنما يتصل بوضعها في التركيب والصياغة وملاءمتها للمعاني والدلالات المرادة منها.

كما استهدف هذا البحث القيام بمحاولة قراءة الأنماط الجمالية للنص القرآني من خلال بنية النظم. وقد انطلق من ضرورة ممارسة نقدية لهذه الظواهر، كي يبرز قوانينها الخاصة وظروفها. فالمعجم القرآني يُعَدُّ أصلح النصوص لرصد ملامح التوظيف النموذجي لبنية النظم، انطلاقا من الكلمة المفردة وختاما بالجملة المركبة، الأمر الذي فتح أمام هذه الورقات البحثية بوابة الدخول في نقاش مع ملاحظات البلاغة وتماس مع أحكام النقد ومقولات لسانيات الخطاب. ولقد كان لكشوفات الرصد الأسلوبي واستبصارها الوصفي فاعليتها في استجلاء المقاربة الخاصة للنص القرآني في حسن استخدامه لهذه البنية الإيقاعية المنتجة للصوتية وتوظيفها بما يخدم النص في كل مستوياته. مما دفع بآلية البحث ممارسة تعتمد الإحصاء بالقدر الذي يتيح للملاحظات التخلص من الانطباعية، ويعين من خلال استقراء الدلالات الإحصائية على إيضاح نتائج ربما اختفت وراء الحكم الذاتي المعتمد على الحدس...

وفي ختام هذه الدراسة يمكن الاهتداء بإذن الله تعالى إلى النتائج الآتية:

1– إن النظم في اعتقادنا هو السبيل الذي يستند إليه النص القرآني في حركة المعنى أو الدلالة. وبالتالي جنوح الخطاب القرآني إلى موسيقى اللغة قصد التشريع. وأن الموسيقى الحقة التي يتوخاها الخطاب القرآني هي موسيقى العواطف والخواطر والمدارك الحسية، تلك التي تتواءم مع موضوعات خطابه وتتكيف معه كل النماذج البشرية المخاطَبة، إنها مقاربة ربانية ليست فاقدة العرى بأهلها وخاصتها، ولم يعتر التفكك اللغة كأداة ولا الخطاب كمتكأ – رساليا – بل شغل هذا الخطاب واستقطبت هذه اللغة العربي وغير العربي بأبجديات موسيقاه.

2– لقد جاءت هذه الورقة البحثية لتبين أن المعطى الإيقاعي عامل مهم في تبليغ الرسالة وفك رموز الخطاب، وكثيرا ما كانت الدراسات القرآنية وعلم التفسير يقيمان تحليلهما العلمي على التوزيع الإيقاعي، وخاصة نظام الكلمة المفردة داخل المعجم أو الجملة القرآنية ورعاية التناسب بين نسجها التركيبي وشبكتها الصوتية باعتبارها الخاصية المميزة للخطاب القرآني والمبدإ المنظم للغته. لقد أشار النقاد العرب القدامى وعلماء البلاغة والإعجاز إلى جماليات الأداء اللفظي في النص القرآني واهتموا بالوقع الصوتي للكلمة المفردة داخل النسيج التركيبي في الجملة القرآنية وأثر ذلك على المتلقي، وشعوره بعذوبة حروفها وسلاسة مخارجها. فاللغة التي وظفها القرآن في الخطاب هي اللغة العربية وهي لغة الوزن في أصلها ومنشئها، وفي معناها ومبناها، كما أنها لغة التوافق الصوتي الأكثر تنظيما للشق الزمني منها، فالحروف والكلمات المفردة والجمل تتبدل وفقا لقانون التماثل والتوافق الإيقاعي، وهذا ما عجز الإنسان في كل زمان وفي كل مكان أن يأتي بمثله.

3– إن الكلام الموزون أكثر نفاذا إلى الفكر وأبقى أثرا فيه فعلماء النفس يقولون: " إن الكلمة الموزونة تطلق شحنات نفسية أخرى تضاف إلى المعنى الأصلي ".

4- محاولة الربط بين موسيقى الفواصل ونتائج علم اللغة في الصوتيات عن طريق المسار التنغيمي للنظم.

والله ولي التوفيق

قائمة المصادر والمراجع:

❖ **مصدر المقالة العلمية ومدارها القرآن الكريم على ما يوافق رواية حفص عن عاصم.**

1. ينظر مدخل إلى الألسنية: بول فابر كريسيان بايلون، ترجمة طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992، ص 234.
2. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 2000، ص 660- 662.
3. مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري: أحمد جمال العمري، دار المعارف، القاهرة، 1984،ص 277- 283 (بتصرف).
4. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ط 4 1980، دار الشروق، ص 155.
5. المرجع نفسه ص 157.
6. المرجع نفسه ص 158.
7. الجاحظ: حجج النبوة ص 144.
8. سلام محمد زغلول: أثر القرآن في تطور النقد العربي، دار المعارف 1952، القاهرة، ص96.
9. ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، دار إحياء الكتب العربية 1954 القاهرة، ص80..
10. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص161.
11. تقي الدين بن تيمية: مجموع الفتاوى، مؤسسة الرسالة القاهرة ط3 ص: 11/239.
12. بكري الشيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص162.
13. البيان في إعجاز القرآن: محمد محمد السباعي الديب ، طبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1990، ص 17.
14. من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، 1950، ص 57- 58.
15. الإعجاز في نظم القرآن: محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1987، ص 66.
16. من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، ص62.
17. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين الفيروز أبادي ، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ص 1 /67- 68.
18. معجم مصطلحات علم الشعر العربي: محمد مهدي الشريف، منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 155.
19. اللغة والشعر والشعراء قديما وحديثا: محمد عايش عبيد ، مجلة الأزهر، الجزء السابع، سبتمبر 1980، القاهرة، ص 349- 350.

20. بلاغة العطف في القرآن الكريم – دراسة أسلوبية –:عفت الشرقاوي، دار النهضة، بيروت، لبنان، د.ت، ص 9.

21. نفسه، ص 15.

22. نفسه، ص 18.

23. نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 137.

24. بلاغة العطف في القرآن الكريم – دراسة أسلوبية –:عفت الشرقاوي، ص 31.

25. مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري: أحمد جمال العمري، ص 284.

26. نفسه، ص 290 (بتصرف).

27. نفسه، ص 285– 286.

28. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تعليق السيد محمد رشيد رضا، ط2، مكتبة القاهرة، 1960،ص 37.

29. نفسه، ص 39.

30. مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري: أحمد جمال العمري ، ص 284– 294 (بتصرف).

31. نفسه، ص 9– 10– 11 (بتصرف).

32. نفسه، ص 295– 296.

33. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري، دار الريان للتراث، ط3، 1987، ص 1 /74.

34. مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري: أحمد جمال العمري ، ص 299.

35. نفسه، ص: 300– 301 (بتصرف).

36. نفسه، ص 304.

37. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث العربي، القاهرة، 1958، ص1 /40.